العجم.. فُرسًا وتركًا

فرضوا على العرب ضغطًا اجتماعيًّا بهدف تهميشهم

لعل مِن قَدَر العرب أن قوميتين عنصريتين تعيشـــان على تخومهما، هما القومية الفارسية والقومية التركية، اللتان تحملان نزعات عنصرية واستعلائية تحكم علاقتهما مع الشعوب العربية، ولو عُدْنا إلى جذور ذلك الصدام الحضاري لوجدنا معظم دوافعه لا تتعدى كراهيةً عمياء ضد العرب بسبب رسالة الإسلام، والنبي العربي الذي ظهر فيهم.

لكن ما هو مآل هذه النظرة بالرغم من مرور أكثر من 1400 عام؟ بلا شك لا تزال حية، وكأن دماء قتلــى الفرس لا تزال تجري في صحاري خراســان إلى اليوم، أما الأتراك فهم يــرون أنهم أحق بالنبوة والنبي من العرب الأجلاف كما يســمونهم، وذلك واضح في الاستيلاء على التراث النبوي كاملًا، ونَقْله من الأماكن المقدسة إلى إسطنبول عاصمة الدولة التركية.

الصراعــات التي خاضها العرب مــع دول التخوم الأعجمية هي ردة فِعل على مشــاعر العداء التركية والفارســية المتجذرة، التي لا تريد أن تتعامل مع العرب كمكون مُجاوِر وأخٍ مسلم في الإقليم، بل إن كل محاولات العثمانيين والفرس تَصبُّ في محاولة اقتلاع العرب ثقافة وحضارة ولغة وخَطًّا، ولعل ما يواجهه العربُ - اليوم - في العراق وســوريا ولبنان واليمن والأحواز دليل على أن الأعاجم إذا دخلوا أرضًا عربية أفسدوها.

تقاسُم كراهية العرب عند الفرس والترك:

تعــرَّف الفرس على العرب في وقــت مبكر من تاريخهما قبل الإســلام، وكانت العلاقة سيئة للغاية، وشــهدت الجزيرة العربية معقل العرب الأوائل على تلك العلاقة التي عكستها حروب وغزوات متكررة بين الطرفين، بل إن الملك الفارسي المعروف بذي الأكتاف "سابور الثاني" تعمَّد الإساءة للعرب في حربه التي خاضها قبل الإسلام، والتي بدأها من الخليج العربي غربًا داخل الجزيرة العربية.

لم يتوقف العداء الفارســي والاستعلاء الشعوبي بعد الإســلام، بل إنه زاد وترسخ، وأخذ أسبابًا إضافية؛ أهمها ســقوط فارس في معركة القادسية، والإهانة التي شــعر بها الفرس، وبالرغم من أن الإسلام جاء داعيًا للتسامح والتآخي بين الشعوب إلا أن الرفض للآخر العربي بقي مسيطِرًا على المزاج الفارسي، وظهر ذلك جليًّا في أدبياتهم.

يقــول الباحث الأكاديمي علاء حبيب في دراســة له: يشــعر الفرس بالنقص إزاء المســتوى الحضاري العظيم للأمة العربية، فالفرس عندما اســتقروا في الهضبة الإيرانية وجدوا العراق موطن الحضارة الإنســانية والإبداع الإنســاني، بينما لم يتمكَّنوا هم عبر تاريخهم من تقديم إســهام حضاري مماثــل، وكان كل الــذي فعلوه أنهم نقلوا إنتــاج حضارة وادي الرافدين إلى فــارس، لذلك فقد أخذوا موقعهم كمتلقين للحضارة لا صانعين لها، فالديانة (الزرادشــتية) لم تكن فارسية، وإنما أخذوها من (الميديين)، ولم يجدوا ما يكتبون به كلامهم إلا الكتابة المســمارية العراقية والآرامية العربية... وكان الإســلام الذي جاء به العرب عاملًا إضافيًّا لجعلهم يكرهون العرب، فبعد أن كانوا يسخرون من العرب أصبحوا جزءًا من الحضارة العربية الإسلامية، فما انفكوا يحلمون بإعادة أمجاد ساسان.

الحركة الشعوبية:

ظهرت الحركة الشــعوبية للعيان في بدايات العصر العباسي، حيث تم الاعتماد على العنصر الفارسي وإقصاء العناصر العربية، ويقول عنها القرطبي بأنها حركة تُبغِض العرب وتُفضل العجم، كما قال عنها الزمخشري: إنها حركة مَن يُصغرون شأن العرب، ولا يرون لهم فضلًا على غيرهم.

وتظهر كراهيــة الفرس وانتقاصهم من مكانــة العرب من خلال المناهج التعليمية، ســواء القديمة منها أو المعاصرة، حيث امتلأت كتب التربية والجغرافيا والتاريخ بمئات الأمثلة التي تســيئ إلى العرب، من أجل تنشئة الأجيال الفارسية على كُره العرب ومعاداتهم.

ويشــرح الأســتاذ الإيراني بجامعة طهران صادق زيبا كلام في مقابلتيــن نقلهما عنه موقع العربية نت، نقلًا عن صحيفة "صبح آزادي" الإيرانية، عن نظرة الإيرانيين الفرس تجاه العرب والشعوب الأخرى بشــكل عام، وتجاه القوميات غير الفارسية في بلاده بشــكل خاص، مبينًا النظرة الدونية من الفرس لغيرهم وخاصة العرب، ومُرجِعًا ذلك إلى أســباب تاريخية بعيدة، ومؤكدًا على أن الكثير منا – الإيرانيين - سواء أكان متدينًا أو علمانيًّا يكره العرب.

أما عــن عنصرية الإيرانيين تجــاه الآخرين فقد قال زيبــا: أنا واثق مــن أن الكثير منا - نحن الإيرانييــن - عنصريــون، فلو نظرتم بإمعــان إلى ثقافات الشــعوب الأخرى تجاه ســائر القوميات والشــعوب والإثنيات، وأخذتــم ظاهرة النكت كمقيــاس، لوجدتم أننا أكثر إســاءةً من خلال النكت، فانظروا كيف نسيء إلى الآخرين.

وأرجع الأســباب التاريخية لكراهية الفرس الإيرانيين للعرب فيقول: يبــدو أننا كإيرانيين لم نَنْسَ بعدُ هزيمتَنا التاريخية أمام العرب، ولم ننسَ القادســية بعــد مرور 1400 عام عليها، فنُخفي في أعماقنا ضغينــة وحقدًا دفينَين تجاه العرب، وكأنها نار تحت الرمــاد قد تتحوَّل إلى لهيب كلما سنحت لها الفرصة.

كراهية العرق التركي للعرب:

الغريب ليس كراهية الفرس للعرب، فتاريخ الأمتين مليء بالصراع كما أن الإيرانيين -كما يقول مثقفوهم- لم ولن ينســوا هزيمة القادسية التي حطمت إمبراطوريتهم، لكن كراهية الأتراك تبدو غير مبرَّرة، إلا من ناحية استكثار أن تكون النبوة والإسلام من عند العرب، ففي التاريخ لم يتعامل العرب مع الترك إلا في القرن الثاني الهجري، عندما استقدم العباسيون الأتراك للعمل في القصور العباسية، ثم بقــي الحال على ما هو عليه حتــى ظهور دولة بني عثمان وغزوها للعالم العربي في عهد الســلطان سليم الأول، وفيها استطاع العثمانيون استخدام الشعوب الأخرى ليكونوا رأس حربتهم ضد العرب في العراق والشــام، كما أن العُقدَة المتأصلة في الترك منذ زمنِ استقلالهم عن الدولة العربية تتمثل في كونهم لم يأتوا مجموعات متصلة وقبائل كما يدَّعون؛ ففي الغالب جاء الترك مماليك للعرب، بصكوك ملكية تمرَّدوا عليها مع الوقت وتحرَّروا، وانقلبوا على العرب.

بين التتريك والفرسنة:

في كل ســانحة للفرس والأتراك يكونون فيها هم المسيطرون، فإن أول أعمالهم هي محاولة تفتيت العرب والقضاء علــى قوميتهم، الفرس يقومون بعمليات ممنهجــة لطمس الهوية واللغة والخط العربي من الأحواز العربية المحتلة، بدافع عنصري شــعوبي اســتعلائي، وما حصل في الأحواز يحاول الفرس تكــراره اليوم في الجغرافيا العربية التي يســيطرون عليها، بتهميــش وإخفاء اللغة العربية تدريجيًّا، ومحاولة إحلال الفارسية بكل ما فيها من مشاعر وثقافة أقل بكثير من العربية.

أما الأتراك فقد انعكس تعامُلهــم الفوقي مع العرب في الكثير من التعاملات، وحرص الأتراك على إبقائهم مجرد شــعوب محتلة، بلا حضارة بلا طريق بلا مســاجد بلا مدارس، وحتى عندما طالب العــرب في مرحلة متأخرة من عمر الدولة العثمانية بالمســاوة التعليمية، حَرَموا العربيَّ من التعلُّم بالعربية، وفُرِض عليهم التتريك.

لقد حاولت القوميتان الفارســية والتركية إخضاع القومية العربية والضغط عليها، فالفرس قصروا إمكانات عرب الأحواز في كونهم مجرد عُمَّال ومزارعين وصيادي سمك، ولا يُسمَح لهم بالتدرج فــي المناصب القيادية، والعرب عنــد القومية التركية كذلك؛ مجرد عمال وفلاحين يقومون بســداد الضرائب والمكوس والرســوم لصالح الخزانــة، أو جنود يموتون في الجبهات لصالح توسُّــع الدولة العثمانية، وقليلًا ما كان يأخذ العربي موقعًا متقدمًا في سلســلة القيادة الإدارية أو العسكرية، بل إن الحكام الفعلييــن في كل البلاد العربية التي احتلَّها الأتراك هم قــادة المحميات التركية، وإذا حصل وكان هناك والٍ عربي فهو مجرد دمية بيد الأتراك، ودوره جمع الأموال، وإثارة الصراعات العصبية بين أبناء العرب.

التتريك شعوبية قديمة في لباس تركي:

كان الشــعوبيون الأوائل يحلمون بتجريــف الثقافة العربية وإزالتها مــن طريقهم، وتحميل العرب أزمة هويتهم وتآكلهم الحضاري، فقد وجد الأتراك في العرب عدوًّا جاهزًا، يمكن أن يحمل سبب ضعفهــم وتخلُّفهــم الحضاري في آخر عهد ســلطنتهم العثمانية، التي بدأت تظهر فيها سياســية التتريك بشكل واضح وفج، وإن كانت العنصرية التركية قديمة قِدَم الاحتلال التركي لبلاد العرب.

وتجلَّى التتريك فــي مظاهر عديدة، منها التحــوُّل عن الكتابة بالخط العربــي، وتنقيح اللغة التركيــة من المفردات العربية، وتحويــل الأذان فترةً من التاريخ إلى التركيــة، وحظر التعامل باللغة العربية في الدواوين والجهات الإدارية والمراســلات، ومنع كتابة العقود والصكوك بغير اللغة التركية، كذلك حظر صدور الكتب والصحف العربية، ومنع المدارس العربية، ومطاردة مَن يُنشــئها، وللتذكير فإن ذلك يتكرَّر اليوم مع عرب الأحواز المُحتلَّة أراضيهم من قِبَل إيران.

المظاهر الحضارية بين بلاد الترك وبلاد العرب:

توسَّــعت الدولة العثمانية حتى ضمت العديد من الأعراق والشــعوب، ومع ذلك تم استبعاد العرب في كثير من الأحيان، وإذا تم الاســتفادة منهم ففي وظائف متواضعة جدًّا، لكنها لم تكن بأي حال من الأحوال وظيفة قيادية، ومعظم المناصب الحكومية الرئيســة يشــغلها أتراك أو غير عرب، فالعداء التركي للعرب لم يكن سلوكًا عفويًّا نابعًا من مشاعر عداء فقط، بل عمل ممنهج، إضافةً إلى محاولــة إخفاء وتمييع الثقافة واللغة العربية، من خلال ما يســمى بالتتريك، وإنكار الثقافة العربية في السلطنة.

محاولات سرقة التراث العربي، والادعاء بأنه عثماني تارة، وفارسي أخرى:

منذ تغوُّل الأتراك والفرس في العالم العربي، وكل همهم تجريد العرب من تراثهم الإســلامي وإلصاقه بهم، فالفرس على ســبيل المثال أنشــؤوا الصفزيباوية لتشكل إســلامًا يشبههم، ظاهريًّا إســلام، ولكنه في معتقداته صفوي وفارسي الهوى، والأتراك ما فتئوا يُفككون مظاهر العروبة متى ما استطاعوا ذلك، ولعل النفائس النبوية خير دليل على ذلك.

آخر محاولات الإيرانيين والأتراك لســرقة التراث العربي تجلَّى في احتجاج الإيرانيين لدى وكالة يونســكو أن "جمهورية تركيا" حاولت تســجيل رســم "الخط العثماني" لدى الوكالــة على أنه "الخط الإســلامي"، وجاء في الاحتجاج الإيراني أنه إن كان هناك رسم للأحرف يمكن اعتباره خطًّا إسلاميًّا فهو "الخط الفارسي".

يقول الباحث حســين عبد الحســين في مقال له: "إن اعتبار أن الخط الإســلامي هو الرسم الفارســي تزوير للتاريــخ يوحــي وكأن أول تدوين لكتــاب المســلمين كان بهــذا الخط، وهــذا غير صحيح، بل إن الخط الفارســي نفســه منقول من الحروف العربية، أما التاريخ الحقيقي فهو أن اللغة العربية كانت تُكتَب بخطوط سابقة للخط الحالي، منها العربــي الجنوبــي، ومنها الآرامــي المعدَّل والمعروف بالنبطي المتأخر، أما أولى مخطوطات القرآن والكتابات الإســلامية الأخرى فكانت بالخط العربــي الحجــازي، يليه الخــط العربــي الكوفي المستوحَى على الأرجح من الأسطرنجيلي الآرامي، الذي كان مستخدَمًا في الكنيسة المسيحية خارج بيزنطة، هذا يعني أن "الخط الإسلامي" ليس تركيًّا ولا إيرانيًّا، بل عربي".

> حاوَل الفرس والترك تزوير التاريخ العربي وسَلْب أمجاده

المراجع:

1) حســين المصري، صلات بين العرب والفرس والترك.. دراسة تاريخية أدبية، القاهرة، 2001.

2) حسين عبد الحسين، "الإســلام دين عربي، لا إيراني ولا تركي"، موقع الحرَّة، على الرابط: https://www.alhurra.com/

3) زبغنيو برجنسكي، رقعة الشــطرنج الكبرى، ط2 (واشنطن: مركز الدراسات العسكرية، 1999).

4) علاء حبيب، "كراهية الفرس للعرب قديمة"، صحيفة الوطن البحرينية، على الرابط: https://alwatannews.net/

5) صادق زيبا كلام، "كراهية العرب.. ظاهرة تنتشــر بين المثقفين الإيرانيين"، العربية نت، على الرابط: https://www.alarabiya.net/